الإذاعة، وبناء العقل والثقافة والخيال (*)

تتعدد فى زماننا وسائل التنوير والتثقيف وزراعة وتخصيب الملكات، وباتت الصعوبة لا فى وجود هذه القنوات، وإنما فى متابعتها وسط تعددها تعددًا غامرًا يحير المتلقين، ومنافسات متنوعة قد لا يحدها عرف ولا قانون ولا أخلاق، بلغ بعضها حد إثارة الغرائز والشهوات، ودغدغة المشاعر بما يرضى لا بما يفيد، والإسفاف الذى قد تعلو لغته وسط الهدير.. هنالك وسط هذا الخضم، تبدو الإذاعة المسموعة ينبوعًا رائقا مصفّى، معقول التكاليف، مجانى الاستقبال والتلقى، يتاح سماعها فى كل وقت ومكان، وفى جميع الأحوال، لا يفصل المتلقين عنها مسافات، ولا كهوف أو منحنيات أو منخفضات، ولا صحارى أو حقول، ولا ورش أو مصانع، ولا وسائل المواصلات ما بين الطائرة والقطار أو الدراجات والمطايا.. تؤدى الإذاعة المسموعة - رغم المزاحمة الشديدة - دورا بالغ الأهمية، بل بالغ التفرد والخصوصية فى تنوير العقل وبناء الثقافة وتخصيب المخيلة والخيال.

---

* الهلال ٢٠٠٥/٩/١

قدرة الراديو أو المذياع على الانتشار أوسع، ثم هو لا يتطلب لتلقيه حالة خاصة كحالة المشاهد للمرئيات، الذى يجب عليه أن يكرس حاسة النظر للاستقبال والتلقى مع باقى الحواس.. فاستقبال المذياع بالأذن يعفى المتلقى من التهيؤ الخاص الذى تستلزمه مشاهدة المرئيات.. يستطيع المتلقى أن يستقبل الإذاعة المسموعة وهو يعمل فى حقله أو ورشته، وهو يستقل القطار أو يقود سيارته أو يركب دراجته أو مطيته.. لا يكلف استقبال الإذاعة المسموعة ما يكلفه استقبال الإذاعة المرئية.. انعدام التكلفة يتيح للإذاعة المسموعة مساحة هائلة من الانتشار لا يمكن أن تجاريها المرئيات الفضائية أو الأرضية أو شبكات الإنترنت، ولا أن تجاريها الكتب أو الصحف أو المجلات.. الاستماع إلى الراديو هو على الدوام استماع مجانى بلا تشفير وبلا أى عوائق وبلا أى تكلفة.. لذلك كان الاعتماد على الإذاعة المسموعة أكثر عراضة وجدوى وفاعلية من غيرها.. يستطيع أن يتابعها - على عكس المطبوعات - العالم والجاهل، والعارف والأمىّ.

قدرة الإذاعة المسموعة على تحريك وتخصيب وإثراء الخيال، لا يمكن أن تضارعها الوسائل المرئية.. الصورة التى تطرحها المرئيات تشد المشاهد إلى تضاعيفها وزواياها وأركانها وألوانها، وتسحب بانشغال المتلقى بالمشاهدة البصرية من انطلاقات الخيال، بينما الإذاعة المسموعة بغير مشهد مرئى، تطلق العنان لسبحات المتلقى فى تخيل المسامع التمثيلية والدرامية وغيرها بأكثر - ربما - مما تقدر عليه المشاهد المرئية.. المشهد المرئى يفرض صورة معينة محددة، بينما لا يصادر المسموع على خيال المتلقى، بل يدعو إلى إعماله لمعايشة ما يسمعه معايشة يصبح

المتلقى نفسه طرفا فيها.. لو سألت مليون سامع لتمثيلية " على بابا والأربعين حرامى " التى أخرجها الإذاعى الفلتة الراحل عبد الوهاب يوسف، لوجدت لكل واحد منهم تصورًا وخيالاً خاصا لشكل كل فصل من فصولها ومسمع من مسامعها.. سوف تجد لكل مستمع تصورًا وخيالاً لكل مشهد سمعه ولم يره فطفقت مخيلته تسبح فى تجسيده ليعيش فيه.. هذه الخاصية هى التى تعطى للإذاعة المسموعة مساحة عريضة لتحريك وتخصيب وإثراء المخيلة، وهى جزء أساسى فى معادلة قدرة الآدمى على الفهم والتدبير والتخطيط والفعل.

تأمن الإذاعة المسموعة مما يمكن أن يصاحب بعض " مشاهد " المرئيات التليفزيونية أو السينمائية أو الإلكترونية مما يثير الشهوات والغرائز التى ربما صرفت المتلقين عن المتابعة المتأملة المركزة فى الفكرة.. مساحة الجد والموضوعية والعمق وتحريك الفكر فيما تقدمه الإذاعة المسموعة - مساحة عريضة ربما عز على المرئيات أن تجاريها فيها، أو أن تلاحق قدرتها على التواصل مع الناس حيث كانوا.. فى الحقل أو المصنع أو الورشة أو بالسيارة أو على الدراجة أو المطية أو فى الحديقة والملعب.. حيث يستطيع الراغب أن يستقبل ما يريد متى شاء وفى مجانية مطلقة لا تكلفه شيئا، ولا تعوقه حتى الأمية عن التحصيل والفهم.. ظنى أن الدول النامية على التخصيص أكثر ما تكون حاجة إلى تشجيع الإذاعات المسموعة والاهتمام بها مادة وتهيئةً وانتشارًا، لأنها وسيلتها المجانية المتاحة للفقراء مع الأغنياء، والأميين مع المتعلمين، ويكفل لها بثها القيام بكافة الوظائف العقلية والفكرية والثقافية والمعرفية والإعلامية..

ويمكنها من بناء الثقافة وتنوير العقل وإثراء المخيلة التى تتعانق مع العقل فى توجيه الفكر والسلوك الإنسانى !

لست ضد " الصورة " أو المرئيات بعامة، ولا أهون منها.. فلها دورها الخاص الذى لا تبارى فيه، فيما لا يمكن تقديمه إلاّ بالصورة وتحصيله بالحاسة البصرية.. لا يمكن تصور الاطلاع على الفنون التصويرية أو التشكيلية بغير الصورة، ولا متابعة الأوبرا والأوبريت ولا فنون الأراجوز والرقص الشعبى والرقص التعبيرى بغير المشاهد المرئية، وإنما أردت أن أشير إلى أن للإذاعة المسموعة هى الأخرى مجالها الخاص والأوسع الذى لا تبارى فيه، ولا تعدم الوسائل لدور متميز فى مجالات تتفوق فيها - برغم غياب الصورة - لما يمكن أن تثيره من التركيز والخيال..

خدمة اللغة محصولاً، وضبطها نحوًا وصرفًا - مهيأة فى الإذاعة المسموعة بصورة لا تتاح بذات القدر والتأثير لغيرها.. يكفيك أن تراجع إلمام وأداء نجوم الإذاعة، لترى بوضوح أنهم كانوا ولا يزالون أصحاب الباع الذى من عباءته خرجت عناصر المرئيات التى تواصلت وحفظت ما خطه السابقون فى الإذاعة، وعبدوا به طريقًا لا تزال العناية به - فى مجال اللغة وضبطها - أميز فى الإذاعة المسموعة عما عداها.. هذه إحدى الوظائف المعرفية والتثقيفية الهامة التى أدتها وتؤديها الإذاعة بكفاءة ملحوظة ومتميزة تضفى على مادتها بعامة قدرًا أكبر من الجد والموضوعية والرصانة التى تسرب قيمها إلى الناس فى سلاسة تلقائية بلا اصطناع.

فيما عدا المشاهد التى يندمج فيها النغم مع الصورة، كالأوبرا والأوبريت والرقص الشعبى أو التعبيرى، فإن معايشة النغم المجرد والتركيز مع اللغة الموسيقية فهمًا وتذوقًا وطربًا، متاح فى المسموع أكثر من المرئى.. نعم الصورة تعطى إضافة غير منكورة للمشاهد الموسيقية - إن جاز التعبير - فى العزف الأوركسترالى والسيمفونى وفى السوناتا وفى غيرها مما بات متعة للمشاهد المستمع فى صالات العزف والعرض وفى دور الأوبرا وفى المرئيات الأرضية والفضائية، ولكن ظنى أن " الإنصات " المركز بحاسة السمع يعطى المتلقى تركيزًا أكثر مع النغم ومع الطرب وربما جنبه الانشغال بحركة أو شكل العازف عن المزيد من التركيز فى النغمة أو الجملة الموسيقية واستحضار وتخيل المشاهد التى ترويها المتتابعات السيمفونية.. قدرة البرنامج الموسيقى على نقل الكلاسيكيات والموسيقى الحديثة، قدرة مشهودة جذبت أعدادًا هائلة من عشاق الموسيقى، ولا نزال نذكر ونسمع أحيانا شروح الدكتور حسين فوزى للسيمفونيات والكونشيرتوهات والسوناتات والمتواليات وكيف استطاع أن يقرب أسرار وفنون الموسيقى الكلاسيكية للمستمعين. لا أقول هذا غضًا مما يحصله المتلقون من متعة وإشباع فى الاستماع المقرون بالمشاهدة فى دور العرض ودور الأوبرا والمرئيات بعامة، وإنما قصدت أن أستحضر ما فى الإذاعة المسموعة من تعويض يتعانق مع باقى المزايا التى ألمحت إلى بعضها للدعوة إلى المزيد ومزيد المزيد من الاهتمام بالإذاعة المسموعة إيمانًا منى بأنها أكثر الوسائل مقدرة على توصيل خدمات تنويرية تثقيفية - سهلة ميسورة - للمتلقين فى كل مكان وزمان وفى جميع الأحوال.

انعكست هذه العناصر التى تميزت بها الإذاعة المسموعة، على اختياراتها لمادتها، وعلى ضوابط ومعايير اختيار الإذاعيين الذين كانوا فى الواقع ترجمة حية عن هذه المكنات، ترددت أصداؤها فى اهتماماتهم وثقافتهم الموسوعية التى رأينا من خلالها نجوماً كبارًا من الإذاعيين لم تقتصر مواهبهم على طلاوة الصوت أو تميز الأداء والإلقاء، وإنما أيضا فى مجالات موسوعية رأينا من خاضها منهم فى الأدب والرواية والشعر والمسرح والتأليف الدرامى والترجمة والكتابة السياسية.. من رحاب الإذاعة خرج نجوم فى التأليف الروائى، وفى الأدب الشعبى، وفى التأليف المسرحى، وفى الشعر والنقد، ورأينا منهم الشاعر والروائى والمسرحى والمجمعى والأديب والمترجم والكاتب السياسى.. أرجو أن أحدثك فى المقال القادم عن أديب متميز وإذاعى فذ جمع طلاوة الصوت وعبقرية الأداء.. نظم الشعر، وكتب للمسرح، وألف التمثيليات والمسلسلات الدرامية والكوميدية والتاريخية، وقدم دررًا فى الترجمة، وكتب فى أدب الرحلات، وفى الدراسات الأفريقية والسياسة بعامة.. وكان نموذجا للإذاعى الموسوعى الذى فهم دور الإذاعة التنويرى والتثقيفى، فأخلص له الاستعداد والاضطلاع والأداء.